

المحاضرة الرابعة: قضية الالتزام في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

يعد الشعر أحد أرقى أشكال التعبير الإنساني، فهو مرآة تعكس هموم الإنسان وأفراحه وأحلامه، كما يعكس تطلعات المجتمعات وصراعاتها. وفي العالم العربي، كان الشعر منذ القدم وسيلة للتعبير عن القيم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، فكان الشاعر مرآة لعصره وناقلاً لمبادئ مجتمعه وأفكاره.

ومع التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها العالم العربي منذ القرن التاسع عشر، ظهر مفهوم **الالتزام في الشعر** كعنوان لعلاقة الشاعر بمجتمعه وقضاياها. فالالتزام لم يعد مجرد نقل للأحداث أو المديح والهجاء كما كان في الشعر الكلاسيكي، بل أصبح موقفًا فكريًا وأخلاقيًا يعبر من خلاله الشاعر عن قضايا الوطنية والاجتماعية والإنسانية، محافظًا في الوقت نفسه على البعد الفني والجمالي لنصه الشعري.

ويشكل الالتزام في الشعر الحديث والمعاصر نقطة التقاء بين الفكر والإبداع، بين التجربة الشخصية والتعبير عن الهم العام، وهو يعكس الوعي العميق للشاعر بدوره تجاه مجتمعه، سواء في مواجهة الظلم أو الدفاع عن الحرية والعدالة والقيم الإنسانية. ومن هنا، تبرز أهمية دراسة هذه الظاهرة الأدبية التي تجمع بين الرسالة والقيمة الجمالية، وتكشف عن مدى تأثير الشعر في تشكيل الوعي الجمعي والمساهمة في التحولات الثقافية والسياسية في العالم العربي.

مفهوم الالتزام:

في اللغة، الالتزام هو مصدر الفعل "التزم"، ويعني الثبوت والديمومة والتعلق بشيء أو اعتناقه، وهو إيجاب المرء أمرًا على نفسه طوعية أو بإلزام، أي التعهد والربط النفسي بشيء بحيث لا يفارقه، سواء كان ذلك عملاً، مალًا، أو فكرة، ويدل على الوجوب والثبوت وعدم الانفكاك .

فالمعاني اللغوية الأساسية تدور بين:

اللزوم والثبوت: الأصل هو "لزم الشيء يلزمه لزومًا"، بمعنى ثبت ودام ولم يفارق.

• **التعلق والاعتناق** " :الترمه" تعني اعتنقه أو تعلق به.

• **الإيجاب الذاتي** :إيجاب الشخص أمراً على نفسه أو التزامه به، مثل "الترم العمل" أي أوجبه على نفسه.

مفهوم الالتزام في الشعر:

يعني مشاركة الشاعر بوعي ومسؤولية في قضايا عصره، والتفاعل مع الأحداث الراهنة، بحيث يصبح الأدب أداة للتغيير، وليس مجرد تأمل أو فن من أجل الفن.

وقد نشأت فكرة الالتزام كتيار أدبي في منتصف القرن العشرين، متأثراً بالظروف السياسية والمجتمعية القاسية، خاصة في المجتمعات العربية تحت الاستعمار، حيث أدرك الأدباء مسؤوليتهم تجاه قضايا الأمة.

وهو يركز على الوعي بقضايا المجتمع، والمسؤولية تجاهها، والموقف الإيجابي تجاه الثوابت والمصير المشترك، مع الحفاظ على الحرية الإبداعية.

الاتجاهات القائلة بالالتزام:

أ/ عند الوجوديين:

رأي جون بول سارتر: يعد الفيلسوف سارتر من أبرز رواد الاتجاه الوجودي كما عد من قبل النقاد فيلسوف الالتزام الأول رغم ذلك استثنى سارتر الشعر من دائرة الالتزام حين صرح في كتابه: "ما الأدب" (كلا، لا نريد للرسم ولا للنحت ولا للموسيقى أن تكون ملتزمة، أو بالأحرى لا نفرض لا نفرض على هذه الفنون أن تكون على قدم المساواة مع الأدب في الالتزام..والشعر يعد من باب الرسم والنحت والموسيقى...)

ويمضي سارتر في إيضاح رأيه الذي يخرج الشعر من الالتزام معتبراً أن الالتزام مرتبط بالبحث عن الحقيقة، وليست غاية الشعراء استطلاع الحقائق أو عرضها ولا تسمية المعاني بالألفاظ.. ويبدو الاسم غير جوهري بالقياس إلى مدلوله الذي هو جوهري. فالشعراء لا

يستخدمون اللغة أداة كما يفعل النثر، إنما الكلمات عندهم أشياء بذاتها، بل هي غاية مقصودة، وهي تمثل المعنى أو تصوره أكثر مما تعبر عنه تماما كما تفعل الألوان في اللوحة المرسومة أو الأصوات في المقطوعة الموسيقية.

وبهذا أخرج سارتر الشعر وسائر الفنون من دائرة الالتزام، وقصر فلسفة الالتزام على النثر باعتباره نفعيا يهدف لغايات اجتماعية أو سياسية أو إنسانية، أما الشعر والفنون الجميلة فأقرب إلى التخيل منها إلى التدبر العقلي.

وجهة نظر الوجودية في التزام الشعر: جدير بالذكر أن سارتر على مكانته في الفكر الوجودي لا يمثل وجهة النظر الوجودية في الشعر، إنما يمثل وجهة النظر هذه وجوديون آخرون من أمثال: **مارتن هيدغر، ريكله، هلدلن...** لكن هؤلاء لم يعالجوا قضية الالتزام معالجة مباشرة على نحو ما فعل سارتر، لأنها لم تكن مطروحة لديهم، بل كان الشعر عندهم **ملتزما في طبيعته** لأن "عبره يتفتح الوجود، وتتكشف الحقيقة، وتشع عبر الوجود الذي يصوره الشاعر أو الفنان" حسب قول هايدغر.

الشعر هو جوهر الفنون جميعا في نظر هيدغر لـ "كونه لغة، واللغة أداة الإنسان لتحقيق العلانية، وإظهار المستخفى، أو هي تجلي الوجود البشري في العالم الخارجي. وإذا كان وجود الصخرة أو النبات أو الحيوان لا يعرف تفتحا فلأن كل هذه الموجودات لا تملك لغة تتخذ منها سبيلا إلى التجلي والانتشار".

الالتزام لدى الواقعية الاشتراكية: يرفض أصحاب هذا المنهج الاعتراف بأي أدب -شعرا كان أو نثرا- إن لم يكن ملتزما بقضايا الإنسان والمجتمع. والشعر لديهم مضمون إنساني واجتماعي قبل كل شيء. وهو محاولة للتسامي على الارتهان الذي يتعرض له الإنسان في المجتمع... لذلك فإن الواقعية الاشتراكية تهتم بالمضمون في النثر والشعر على حد سواء

وتعتبر الشعر تأملاً لأن الشاعر يفكر بواسطة الصور وهو لا يبرهن على الحقيقة بل يدل عليها ويحاول جلاءها.

لا تنتكر الواقعية الاشتراكية للجمال الشكلي في الشعر، فالشعر عمل فني لا يكمن جماله في شكله فقط بل في الانسجام التام بين الشكل والمضمون. والشعر لا يكتفي باللذة الجمالية بل هو معرض من معارض الفكر المرتبط بكفاح الشعوب من أجل التحرر، وخدمة قضايا الإنسان.

الاتجاهات المعارضة لضرورة الالتزام:

نظرية الشعر الصافي: من أبرز الآخذين بنظرية الشعر الصافي: إدغار ألان بو، بودلير، مالارميه، بول فاليري وهم جميعاً من شعراء الرمزية. لكن منظر هذه النظرية هو: هنري بريمود في كتابه الشعر الصافي وهو يشرح فيه أن العناصر المكونة للشعر تنقسم إلى قسمين: عناصر جوهرية وشعرية خالصة، وعناصر غير جوهرية وغير شعرية.

-القسم الأول (الجوهري) يتكون من أشياء مستترة إيحائية عميقة، لا سبيل إلى شرحها أو تفسيرها، أو التعبير عنها بمدلول الكلمات. هي نوع من السحر الذي يشعر به القلب من غير أن يستطيع المرء إدراكه أو الإحاطة به. وهي قريبة منا بعيدة عنا في آن معا لها تدين القصيدة بخصائصها الشعرية، وهي بحضورها وإشعاعها وقدرتها على التحويل والتوحيد. تشكل ما نسميه بالشعر الصافي.

-القسم الثاني الذي ينتظم العناصر غير الشعرية وغير الجوهرية في القصيدة، فيتكون من الموضوع والأفكار وجرس الوزن ورنين القوافي ودقة الوصف وإثارة العواطف والانفعالات وما إلى ذلك من عناصر فكرية وعاطفية وصناعية وبلاغية.

هذه العناصر الشعرية الخالصة التي تحدث عنها هنري بريموند لا تأتي مستقلة في القصيدة ولا يمكن أن تتألف القصيدة مما هو شعري خالص فقط وإنما يتألف العنصران ليتكون من مجموعهما ما يسمى بالقصيدة.

من الجدير بالذكر أن نظرية الشعر الصافي متأثرة بالمدرسة الرمزية بشكل كبير وهي مدرسة تعتمد كل الاعتماد على الجوانب الإيحائية التي تتجاوز حدود اللغة ومدلولاتها العقلية.

يستشهد بريموند بقول فلوبير "إن بيتا شعريا جميلا، لا يحمل أي معنى، خير من بيت شعري أقل منه جمالا وإن انطوى على معنى مهم" لكن ذلك لا يعني أن بريموند ينكر أن الشعر يدل على معنى، إذ يؤكد على أهمية الانسجام والتآلف بين العناصر الشعرية، واللاشعرية.

نظرية الشعر للشعر المنبثقة عن نظرية الفن للفن: يمكن أن نقول أن نظرية الشعر الصافي لا تعارض الالتزام بالمطلق وإن كانت لا تأخذ به أما الذي يعارض الالتزام فهي نظرية الشعر للشعر وهي نظرية تعتبر أن الشعر غاية في ذاته، وليس له هدف اجتماعي أو سياسي أو حضاري أو إنساني. وهذا يعني أنه قد يشتمل على القضايا سابقة الذكر لكن قيمته ليست في هذه القضايا وما تقتضيه من مضمون فكري بل هي لاحقة بالشعر. فالمهم هو التجربة الشعرية التي يقول عنها جوتسه "لا وجود لشيء جميل حقا إلا إذا كان لا فائدة منه وكل ما هو نافع قبيح" لكن جوتسيه لا ينكر أن في الفن فكرا لكنه يقول "نحن نعتقد في استقلال الفن، فالفن لدينا ليس وسيلة، لكنه الغاية. وكل فنان يهدف إلى ما سوى الجمال فليس بفنان."